أبو فراس الحمداني حياته وشعره

أولا –نسبه ونشأته:

1-نسبه:

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن أحمد بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن تميم بن تغلب التغلبي ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة ابني حمدان، وكنيته "أبو فراس" وهي كنية الأسد، وهي من كنى العرب، ويكنى بها من تظهر عليه علامات الشجاعة والفروسية، وقد غلبت هذه الكنية على الحارث بن أبي العلاء حتى كاد لا يعرف إلا بها.

ولعل لنسبه العريق أثرا كبيرا في فخره واعتزازه، فقد فاض شعره قبل أسره بذكر آبائه وأجداده، كما يبدو ذلك ظاهرا في رائيته الطويلة التي مطلعها:

لعلَّ خيال العامرية زائرُ فيُسعَدَ مهجورٌ ويُسعِدَ هاجرُ

حيث قال دالا على مبعث الفخر عنده:

تبوّأتُ من قرمي مَعَدٍّ كليهما مكاناً أراني كيف تُبنىَ المفاخرُ

2-والده:

كان أبوه أبو العلاء سعيد بن حمدان أميرا من أمراء بني حمدان، وكان ملازما (المقتدر) مكينا عنده، وكانت أكثر مواقفه بين يديه وعلى بابه، إلى أن حظي بولاية الموصل سنة 318هـ، بعد أن عزل ناصر الدولة ومن المؤكد أن هذا كان عاملا طبيعيا في انقضاض ناصر الدولة على عمه أبي العلاء وقتله فيما بعد.

وكان لأبي العلاء مواقفه مع الروم، فقد غزا في سنة تسع وعشرين وثلاثمئة فأوغل في بلاد الروم.

وقد سجل أبو فراس صورا من شجاعة والده في ديوانه، ومن ذلك قوله:

أولئكَ أعمامي ووالدي الذي حمى جَنَبات المُلكِ والملكُ شاغرُ

بحيثُ نساء الغادرين طوالق وحيثُ إماءُ الناكــثينَ حرائرُ

وهذا الذي اتصف به والده من فروسية وشجاعة وحظي به من مكانة وما عرف عنه من قول الشعر لابد أن يؤثر على أبي فراس في حياته وشعره، ولكن الموت لم يمهل هذا الوالد الشجاع فقد حدث ما بدأ حياة هذا الطفل بما يكدرها، لتبدأ بعد ذلك سلسلة من الأحزان والكوارث لازمت أبا فراس طول حياته. حتى انتهت بقتله في نهاية المطاف.

قتل أبوه سعيد في رجب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، قتله ابن أخيه ناصر الدولة بالموصل، ولعل ذلك بسبب عزل المقتدر لناصر الدولة وتولية أبي العلاء مكانه.

3-والدته:

نسبه العربي ثابت من جهة أبيه، أما نسبه لأمه ففيه لبس، فأبو فراس يقول في شعره:

وأعمامي ربيع وهي صيدٌ وأخوالي بَلَصْفُر وهي غلبُ

وقال:

أقمتُ بأرض الروم عامين لا أرى من الناس محزونا ولا متصنِّعا

إذا خفْتُ من أخوالِيَ الروم خطَّةً تخوفتُ من أعمامي العرب أربعا

حيث يتضح للباحث أن أمه كانت رومية، ولكنه قال في مقام آخر:

سَمَتْ بنا وائلٌ وفازت بالعزِّ أخوالنا تميمُ

فأوهم أنها عربية أصيلة من قبيلة تميم.

وأغلب الظن أنها كانت رومية، ذلك لأن التاريخ لم يذكر أن لأبي فراس أخوالا، وأبو فراس يذكر ذلك في شعره.

4-نشأته ووفاته:

أكثر الروايات على أنه ولد سنة عشرين وثلاثمائة، ويذكر بعضها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

وقد اختلف الباحثون في تحديد مسقط رأسه، نظرا لعدم وقوفهم على نص تاريخي يثبت ذلك، فذهب أكثرهم إلى أنها "منبج" ناظرين إلى أنه أصبح واليا عليها فيما بعد. بينما ذهب البعض إلى أن الموصل مسقط رأسه.

وأما عن مرحلة الطفولة فقد اختفت من كتب التاريخ والأدب إلاّ القليل عنها. وقد ذهب أحمد بدوي إلى أنّ أمه قد نشّأته تنشئة صالحة وعنيت بثقافته عناية خاصة، فأحضرت له مربين

لقنوه علوم الدين واللغة العربية، وتاريخ العرب وأيامهم، ولاسيما تلك الأيام التي كانت لقبيلته ربيعة، ودرّسوا له شيئا من الشعر ولاسيما شعر أهل الشام الذين كان البحتري نموذجهم ومثلهم كما تعلم الرماية والفروسية على يد مدربين مهرة، وذلك هو منهج دراسة الأمراء في ذلك الحين، وقد أجاد أبو فراس ما درس.

ويوضح شعر أبي فراس أنه تنقّل في مواطن كثيرة مع أمه مثل آمد وميافرقين وماردين، والرقة ولعلّهما أقاما بين الموصل والرقة فتفتّحت عينه على جمال الموصل والرقة ودجلة والفرات، ثم انتقل إلى حلب وعمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، وذلك عندما سار سيف الدولة لتأسيس دولته هناك، حيث أصبح أبو فراس الشخصية الثانية في المجتمع الحمداني بعد الأمير سيف الدولة بل أصبح يرى نفسه فيما بعد ندّا لسيف الدولة يتّصف بمثل صفاته.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة حين استقرت الأوضاع لسيف الدولة في حلب قلّد أبا فراس ابن عمه منبج وما حولها من القلاع. وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة، لما رأى فيه من النجابة والقدرة على تحمّل المسؤولية. ومنذ ذلك الحين بدأ نجم أبي فراس يلمع في سماء الفروسية والشعر.

وقد أفاد من سيف الدولة حيث عُدَّ: مثقف أبي فراس ومنبته ومخرجه وموقفه على سننه وآثاره.

كما أفاد من معاصريه أمثال ابن خالويه الذي أصبح صديقا حميما له يأتمنه على سرّه وشعره.

أسره الروم، وذهبوا به إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية وهو ما ذكره الثعالبي، وطوال مدة أسر أبي فراس والتي استمرت أربع سنوات كان يكاتب سيف الدولة للفداء، لما كان يعلم أن لديه أسرى من عظماء الروم، منهم البطريق المعروف "باغورج" وابن أخت الملك وغيرهم فيأبى سيف الدولة ذلك، ويقول: لا أفدي ابن عمي خصوصا، وأدع باقي المسلمين ولا يكون الفداء إلا عاما للكافة.

وبعد خروج أبي فراس من الأسر قل شعره فلم يرو منه إلا بضعة مقطوعات. وذكر الثعالبي أنه " لما أطلق أسد الحرب عن إساره، لم تطل أيام فرحته...، ودلت قصيدة قرأتها لأبي إسحاق الصابي في مرثيته على أنه قتل في وقعة كانت بينه وبين موالي أسرته".

وقد اختلفت الروايات في سنة وفاة أبي فراس، فنقل صاحب شذرات الذهب عن ثابت بن سنان الصابي أنه في يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وهو في هذا قد وافق التنوخي الذي ذكر أن عمره يوم مقتله أربعون سنة أو سبع وثلاثون ونحوها.

ثانيا-شعره:

يعدّ أبو فراس في مجال الشعر في طبقة المتنبّي وان كان دونه في أمور ويفوقه أبو فراس في أمور أخرى. ويرفع الثعالبي من شأنه إلى مرتبة عالية في عبارات يتناقلها الرواة والكتاب من بعده فيقول: " وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام، وكان الصاحب بن عباد يقول:" بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يعني امرأ القيس، وأبا فراس.

وأبو فراس شاعر مطبوع مشبوب العاطفة يقول الشعر إرضاء لنفسه ولم يتّخذ الشعر حرفة. وشعره وُجداني خالص يدور على فنّين: الفخر والغزل. وهو من أتباع المذهب الشامي. وغزله عفيف رقيق، وبعض شعره صريح. وفخره على عمود الشعر متين فخم، وله وصف للطبيعة، وشعر في الخمر.

نظم أبو فراس في الأسر قصائد عرفت بالأسريات والرّوميات، وكان بعضها إخوانيات يرسلها إلى إخوانه كما تُرسل الرسائل، ولكن لم يظهر على هذه الروميات خصائص جديدة سوى أنها كانت أكثر رقة وأكثر شكوى.

وممّا قاله أبو فراس في الفخر:

ألم ترنا أعزّ النّاس جاراً وأمنعهم وأسرعهم جنابـا

لنا الجبلُ المطلُّ على نزارٍ حللنا النّجد منه والهضابـا

تفضّلنا الأنام ولا تحاشي ونوصف بالجميل ولا نُحابي

وقد عَلِمت ربيعةُ بل نزارٌ بأنّا الرّأس والنّاس الذّنـابى

وقال لمّا سمع هديل حمامة على شجرة قرب سجنه في القسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامــة أيا جارنا لو تشعرين بحالي

معاذ الهوى. ما ذُقتِ طارقة النوى ولا خطرت منكِ الهموم ببال

أتحملُ محــزون الفؤاد قوادمٌ على غُصنٍ نائي المحلة عال؟

ومن قصيدة يستحث بها سيف الدولة على فدائه:

دعوتُك للجفن القريح المهد لديّ، وللـــنوم القليل المشرّد

وما ذاك بُخلا بالحياة، وإنها لأول مـــبذول لأول مُجتد

ولكنّي أختار موت بني أبـي على صهوات الخيل غير مُوسّد

وتأبى وآبى أن أموت موسّدا بأيدي النّصارى موتَ أكمد أكبد

وقال في الفخر والغزل:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبرُ أما للهوى نـهيٌ عليكَ ولا أمرُ

بلى، أنا مُشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكن مثلي لا يُذاع له سـرُّ

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى وأذللتُ دمعا من خلائقهِ الكبرُ